إشكالية الاحتجاج باللهجات العربية في القراءات القرآنية: مقاربة نحوية

Problematic of argumenting by arabic dialects in Qur'anic readings: Grammatical approach

طالب الدكتوراه. درغوم عبد الناصر

د . فصيح مقران

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة باجي مختار-عنابة(الجزائر)

abdennassir.derghoum@univ-annaba.org

تاريخ الإيداع: 2020/04/28 تاريخ القبول: 2020/05/11

ملخص:

تعتبر اللهجات العربية على اختلاف أنواعها، أحد مظاهر التنوع اللغوي الذي حظيت به اللغة العربية منذ القديم، وقد ساهم هذا التنوع في إثراء المستويات اللغوية المختلفة؛ صوتا، وصرفا، وتركيبا، ودلالة، ولما كان اللسان العربي -في نسقه العام- متمثلا في مجموع تلك اللهجات، لم يكن بدعا أن يأتي القرآن الكريم بقراءاته المختلفة وفق مقتضى تلك اللهجات العربية؛ على اعتبار أنها تشكل مستوى فصيحا في الاستعمال اللغوي، لا يقل أهمية عن مستوى اللغة الأدبية، وهذا ما فتح المجال لتخريج كثير من الظواهر النحوية المشكلة في القراءات القرآنية، على أنها من باب الاستعمالات اللهجية لبعض القبائل العربية القديمة، التي عاصرت نزول القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: اللهجات العربية، القراءات القرآنية، الاحتجاج اللغوي، القرآن الكريم، النحو.

Abstract:

Arabic dialects of different types are considered one of the manifestations of the linguistic diversity that the Arabic language has enjoyed since ancient times, and this diversity has contributed in enriching the various linguistic levels; phonetics, morphology, grammar, along with semantics, and since the Arabic tongue - in its general form - represented in the sum of those Dialects, it was not strange for the Holy Qur'an to come up with its various readings according to the requirements of those Arabic dialects, considering that they constitute a fluent level of linguistic use, that is no less important than the level of literary language, and this is what

opened the way for the graduation of many problimatic grammatical phenomena in the Qur'anic readings, to be seen as a matter of dialectical usages of some ancient Arab tribes, which were contemporary to the revelation of the Holy Qur'an.

key words: Arabic dialects, Quran readings, Linguistic argumentation, The Holy Quran, Grammar.

مقدمة:

تعتبر اللغة العربية واحدة من أوسع اللغات وأكثرها تنوّعا، ولا أدلّ على ذلك من اللّهجات العديدة التي عرفتها منذ القديم، والتي شكلت بدورها ثراء لغويا في المستويات الصوتية، والصرفية والتركيبية، والدلالية.

ومن أهم الحقول العلمية التي أفادت من هذا الرصيد اللهجي الثري حقلُ القراءات القرآنية؛ ذلك أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب المتمثل في مجموع لغاتهم ولهجاتهم، ومن هنا كان للاحتجاج باللهجات العربية دور بارز في معالجة القراءات القرآنية قديما وحديثا.

ويهدف هذا البحث لدراسة إشكالية الاحتجاج باللهجات العربية في القراءات القرآنية، من حيث إبراز دورها الجوهري في الحكم على القراءات القرآنية صحة وشذوذا، وكذا من حيث توجيه معانيها وأوجه إعرابها، وهو ما شأنه الإسهام في حل كثير من الإشكالات المطروحة في حقل الدراسات القرآنية، خصوصا فيما يتعلق بالاستعمالات المشكلة في بعض القراءات القرآنية التي تعارض الأقيسة النحوية.

أولا. اللهجات العربية القديمة:

1.مفهوم اللهجة العربية القديمة:

ينبغي ابتداءً أن نوضح حدود بحثنا في هذا الموضوع المتعلق باللهجات العربية؛ ذلك أن هذا المصطلح يكتنفه شيء من الغموض الناتج عن تعدد المفاهيم بين القديم والحديث، وبين الدراسات اللغوية القديمة والدراسات اللسانية الحديثة.

وإذا أردنا التأصيل لمصطلح اللهجة فإننا لا نجده غريبا عن المعاجم اللغوية القديمة؛ إذ يقول ابن منظور (ت711ه) في "لسان العرب": "لَهِجَ بالأَمرِ لَهَجاً، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كلاهما: أُولِعَ به واعْتادَه [...]واللَّهْجةُ واللَّهَجةُ: جَرْسُ الكلامِ، والفتحُ أَعلى. ويقال: فلان فصيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجةِ، وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادَها ونشأَ عليها"[1]، فيظهر من هذا أن اللهجة تتعلق

بكيفية نطقية يستخدمها الناطق عند التكلم، وهو ما عبر عنه ابن منظور بالـ"جرس"، وزاد معنى آخر يراد عند إطلاق كلمة "لهجة" وهو اللغة نفسها التي يكتسبها المتكلم من بيئته فينشأ عليها، وقريب مما ذكره ابن منظور ما جاء في "المعجم الوسيط" فلم يخرج عن المعنيين السابقين[2].

وأما اللهجة في الاصطلاح الذي عليه البحث، فالمقصود بها "العناصر التي تكوّن العربية الفصحى، أو الخصائص اللهجية التي تنسب إلى قبائل بذاتها ثم دخلت الفصحى وصارت جزءًا منها؛ أي صار لها مستوى من الفصاحة يقرأ به القرآن، وينظم به الشعر"[3]، فتبين من هذا أن مفهوم "اللهجة" المقصود في البحث غير المفهوم الشائع في أدبيات علم اللهجات، واللسانيات الجغرافية المرادف للعامية (Dialect)؛ إذ اللهجة بالمفهوم الأول مستوى فصيح شأنه شأن بقية مستويات الفصاحة اللغوية، غير أن ما يميزه هو تواتر الاستعمال وخصائصه الصوتية والأدائية، ومن هنا كان أحد مكونات اللغة الفصيحة، وجاء وفق مقتضاه الاستعمالُ العربي في القرآن الكريم وفي الشعر والنثر.

ورغم تداخل مفهوم "اللهجة" بين الاستعمالين العربي القديم واللساني الحديث إلا أننا آثرنا الإبقاء عليه لسببين؛ أولهما لكي نفرق بين اللهجة بعدّها استعمالا لغويا خاصا منسوبا في الغالب لإحدى القبائل العربية القديمة، تمييزا له عن اللغة الأنموذج لغة قريش التي أنزل غالب القرآن بما يوافقها كما سيأتي بيانه، وأما السبب الآخر: فتبع لما اختاره عبده الراجحي من تفضيل استعمال هذا المصطلح لغاية علمية وهي أن "درس اللهجات العربية القديمة ليس درسا للعاميات كما يسبق إلى ظن بعض اللذين كتبوا عن هذه اللهجات، فالهمز والتسهيل، أو الفتح والإمالة مثلا ليسا من العامية في شيء، وإنما هما مستوى من الفصاحة معروف مقرر لدى القدماء الفصحاء"[4]، فظهر بهذا أن اللهجة العربية القديمة إنما هي لغة عربية فصيحة، ذات خصائص أدائية معينة، تنسب في الغالب لقبيلة أو أكثر لكثرة الاستعمال والاشتهار، فيقال: لهجة تميم وأسد وبني كنانة، والمقصود لغتهم التي عرفوا بها نظرا لاشتهارهم باستعمالها، وكذا لخصوصية صوتية أو تركيبية تميز لهجة هذه القبيلة عن لهجات بقية القبائل.

2. اللهجات العربية القديمة والاحتجاج اللغوي:

لما كان عصر التدوين، أنشأ اللغويون -والنحاة خاصة- يجمعون اللغة من مظانها، شعرا ونثرا، ونظرا لطبيعة حياة العرب الاجتماعية، فقد كانت اللغة مبثوثة في لهجات القبائل والعشائر على اختلاف ما بينها من حيث الظواهر الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، وكذا من حيث طبقة كل لهجة، ومكانتها في الاستعمال اللغوي، وذلك تبعا لمكانة القبيلة نفسها، ولخصائص وجودها السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي والجغرافي.

ومن هنا لم يكن للهجات القبائل العربية المكانة نفسها في الاحتجاج اللغوي؛ حيث عمد النحاة إلى تصنيفها مراتبَ بعضها أرفع من بعض في الاحتجاج والاستشهاد، وأرفعها مطلقا لغة قريش، قال الفارابي (ت339هـ) كما نقله عنه السيوطي (ت911هـ): "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وإبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"[5]، وهكذا كانت قريش بما توفر لها من مقومات الصدارة سياسيا واقتصاديا وجغرافيا، فكانت في الرتبة العلية من حيث الاحتجاج، ثم تليها جملة القبائل الستة التي ذكرها الفارابي وهي في الأصل القبائل الموغلة في البداوة والانعزال عن جميع المؤثرات الأجنبية التي قد تغير اللسان، وتحدث اللحن، وهذه هي العلة في ترك الاحتجاج بكثير من القبائل كلخم، وقضاعة، وتغلب، وبكر، وثقيف، وغيرهم ممن كان يتاخم البلاد التي سكنها الأعاجم من فرس، وروم، وهند، وحبشة، وغيرهم، وبوب ابن جني (ت392هـ) في "الخصائص" بابا عن ترك الأخذ عن أهل المَدَرِ كما أُخِذَ عن أهل الوبر، فقال: "علّة امتناع ذلك ما عَرَضَ للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلِمَ أن أهل مدينةٍ باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضًا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدَرِ من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يَرِدُ عنها. وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا؛ لأنا لا نكاد نرى بدويًّا فصيحًا. وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغُضّ منه"[6].

هذا ورغم هذا القيد الجغرافي في الاحتجاج اللغوي، إلا أنه بقي شرطا نظريا في كتابات المصنفين ومؤلفاتهم، فهذا ابن مالك –وإن كان متأخرا- يكثر الاستشهاد بلغات لخم، وخزاعة، وقضاعة، ولهذا اشتد نكير أبي حيان عليه في مواضع كثيرة حتى أغلظ عليه فقال: "

وهذه عاده من لم يشتغل علي العلماء، بل ينظر بنفسه، ويستبد برأيه"[7]، ولعل اختيار ابن مالك وبعض من سبقه من المتقدمين في اعتماد لهجات القبائل زيادة على الستة المذكورة هو ما دفع ابن جني من قبل للإقرار بأن اللغات على اختلافها كلها حجة؛ إذ "سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم؛ ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال (ما) ولغة تميم في تركه، كل منهما يقبلها القياس فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها [...]ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم "نزل القرآن بسبع لغات كلها شاف كاف"، هذا إن كانت اللغتان في الاستعمال والقياس سواء ومتقاربتين، فإن قلّت إحداهما جدا، وكثرت الأخرى جدا، أخذت بأوسعها رواية، وأقواهما قياسا [...] فإن الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء، لكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين"[8].

فتحرر مما سبق أن النحاة واللغوين قد سلكوا في احتجاجهم بلهجات العرب ولغاتها منهجا انتقائيا تصنيفيا؛ فاعتبروا لغة قريش الأنموذج العالي للغة فكانت المعيار المقيس عليه، والمرجع المعود إليه، ثم اصطفو من لهجات القبائل العربية ما كان أقرب للعزلة والبداوة، وأبعد عن الخلطة والتمدن، وذلك استبعادا لشبهة اللحن والتغير في اللسان، الذيْن ظهرا في ألسنة كثير من القبائل المجاورة للأمم الأعجمية، أو المقيمة في الحواضر المختلطة كحاضرة الحجاز.

ثانيا. القراءات القرآنية:

1.تعريف القراءات القرآنية:

القراءات جمع قراءة، وهي مصدر من مادة (ق ر ء) التي تدل على جمع واجتماع، يقال: قرأ، يقرأ، قراءة، وقرآنا، قال ابن منظور: "قَرَأْتُ الشيءَ قُرْآناً: جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض"[9]، ومنه سُمّي القرآن لجمعه السور والآيات.

والقراءة في اصطلاح علماء القراءات هي: "كيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة"[10]؛ فالقراءات إذن تتعلق بجانبين؛ يختص أحدهما بكيفية الأداء للحروف والكلمات من مد وقصر، وتفخيم وترقيق، وهمز وتسهيل، وغيرها، وأما الآخر فيختص باختلاف هذه الحروف والكلمات كتابة وإثباتا في المصاحف، ككتابة التاء مبسوطة أو مربوطة، وإثبات الألف أو حذفها ونحو ذلك، ومرد هذين الأمرين –كيفيات الأداء واختلاف الحروف- إلى النقل عن الأئمة القراء بالأسانيد والإجازات المتصلة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل -عليه السلام- عن رب العزة -جل جلاله-.

وعليه فيمكن اعتبار القراءاتِ مذاهبَ للأئمة القراء واختيارات لهم في كيفية أداء القرآن الكريم من جملة المرويات الكثيرة الواردة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، اشتهروا بالعناية بها إجازة وإقراءً حتى نسبت إليهم[11]، ثم لم يشتهر منها لدى المسلمين إلا القراءات العشر المعروفة، وبها يقرأ إلى اليوم.

ولما كانت القراءات من جملة المرويات التي يدخلها الصحة والضعف؛ فقد اشترط العلماء لقبول القراءة ثلاثة شروط، بينها ابن الجزري (ت833هـ) في كتابه "النشر في القراءات العشر" بقوله: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القران ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين"[12]، ويلاحظ من خلال هذا النقل اشتراط موافقة العربية ولو بوجه، ومن هنا اتصلت العلاقة بين القراءات القرآنية واللغة العربية بمختلف لهجاتها، إذ كثير من خصائص القراءات إنما يرجع في الأصل لخصيصة لهجية عند قبيلة بعينها، وفي ذلك تآليف من أشهرها كتاب "لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم" لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) وغيره، وبوب لذلك السيوطي بابا في كتابه "الاتقان في علوم القرآن"، فقال: "النوع السابع والثلاثون: فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز"، وساق لذلك الأمثلة[13].

والحاصل أن القراءات القرآنية وإن كانت كيفيات مختلفة لأداء القرآن الكريم؛ فإن اختلافها يرجع في بعض أسسه لاختلاف لهجات العرب الذين نزل القرآن الكريم فيهم، وما ذاك إلا تسهيلا عليهم لقراءته وفهمه وفق مقتضى ألسنتهم ولهجاتهم.

2. اللهجات العربية القديمة والأحرف القرآنية السبعة:

يرجع مفهوم الأحرف السبعة إلى ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ علَى حَرْفٍ فَراجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ ويَزِيدُنِي حتَّى انْتَهَى إلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ"[14]، فاختلف العلماء في تفسير الأحرف السبعة على أقوال أوصلها السيوطي إلى نحو أربعين قولا[15]، غير إن الإجماع منعقد على أن القراءات [السبعة] غير الأحرف السبعة؛ إذ منشأ الأحرف السبعة في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، أما القراءات فأول من جمعها (أبو عبيد القاسم بن سلام) (ت 224هـ)[16] ، فظهر بهذا الفرق بين القراءات السبعة والأحرف السبعة، ويبقى الأمر دائرا بين الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم وبين اللهجات العربية القديمة؛ فقد أوّل بعض أهل العلم تلك الأحرف بأنها لغات سبع

قبائل ولهجاتها، وتقدم قول ابن جني في رد تفضيل لهجة على أخرى بأن القرآن نزل على سبعة أحرف[17]، ونقل السيوطي عن جماعة من أهل العلم هذا التأويل وأدلته، وناقشها بأقوال المعترضين عليها[18].

ومهما يكن فإنه وإن لم يستقر الإجماع على أن المقصود بالأحرف السبعة هو سبع لهجات لسبع قبائل عربية، فإن الاتفاق شبه واقع على أن القرآن لم يخل من لهجات بعض القبائل، فيتحرر من هذا أن الاتصال الشديد قائم بين لهجات العرب وبين القرآن الكريم سواء بقراءاته التي يقرأ بها، أو بأحرفه التي أنزل عليها، ومن هنا شغل الاحتجاج باللهجات العربية القديمة حيزا مهما في دراسة القراءات القرآنية وفهمها، ومن ثم تأويل مشكلها بما يوافق لغات العرب ولهجاتهم.

ثالثا. الاحتجاج باللهجات العربية في القراءات القرآنية:

تبين مما سبق أن القرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب، وهي اللغة التي يمثلها مجموع لهجات القبائل العربية القديمة التي نزل القرآن الكريم على أهلها، ونظرا للاختلافات الكائنة بين لهجات تلك القبائل على المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، فقد كان من إعجاز القرآن الكريم أن نزل بلغة تستوفي مجمل تلك اللهجات وفق نسق محكم، فيه تسهيل على العرب لكي ينطقوا بالقرآن وفق ما يوافق لهجاتهم من جهة، وفيه من جهة أخرى تعالٍ وسموٌّ بنظمه وأساليبه بما يجعله الأنموذج الأوفى للاستعمال اللغوي العربي.

ومن هذا الباب تنوعت أحرف القرآن الكريم التي أنزل بها، وتعددت قراءاته التي يتلى وفق أحكامها، مما كان له الأثر البين في استنباط قواعد اللغة العربية عموما، والنحوية منها خصوصا، وذلك على اعتبار أن القرآن الكريم بقراءاته المختلفة هو الأصل الأول، والمصدر الأساس الذي اعتمده النحاة في تقعيد القواعد، واستنباط الأصول، ومن هنا برزت عديد الظواهر النحوية المشكلة في القراءت القرآنية، وذلك بسبب مخالتفتها للنسق العام الذي استنبطت وفقه القواعد النحوية، فكان من أبرز التخريجات التي اعتمدها النحاة في تأويل هذه الظواهر اللغوية المميزة أن أرجعوها إلى اختلاف اللهجات العربية القديمة، ونستعرض فيما يلي مثالين لظاهرتين نحويتين مشكلتين في بعض القراءات القرآنية، ونتناول بالتحليل آراء النحاة فيهما، وكيف خرجوهما وفق مقتضى الخصائص اللهجية للقبائل العربية القديمة.

1.لهجة من يلزم المثنى الألف مطلقا:

استقرت القواعد النحوية في المشهور على أن المثنى يرفع بالألف، وينصب ويجر بالياء، قال سيبويه (ت180هـ): "اعلم أن التثنية تكون في الرفع بالألف والنون، وفي النصب والجر بالياء والنون"[19]، غير إنه قد أتى في القرآن الكريم قوله تعالى {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ}[طه:63]، وقراءة {هَذَانِ} هي قراءة جمهور القراء العشرة غير أبي عمرو[20]، ومقتضى القاعدة السابقة أن تجيء (إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ)، على أن (هَذَيْنِ) اسم "إن" منصوب، وعلامة نصبه الياء لأنه مثنى، لكنه جاء بالألف على خلاف القياس النحوي، وهذا ما فتح الباب لبعض الطاعنين في القرآن الكريم، فنسبوا إليه اللحن والخطأ، والأمر على غير ما اعتقدوا، كما سيأتي بيانه.

وقد جاء في تخريج هذا الاستعمال عدة أقوال، غير أن أمثلها كما قرره ابن يعيش (ت643هـ) في "شرح المفصل": "أن تكون على لغة بني الحارث في جعلهم المثنى بالألف على كل حال؛ كأنهم أبدلوا من الياء ألفًا لانفتاح ما قبلها، وإن كانت ساكنة"[21]، أي أنهم يلزمون المثنى الألف في جميع حالاته الإعرابية؛ رفعا ونصبا وجرا، وهذه الخاصية اللهجية معروفة عند كثير من القبائل العربية، فعلاوة على بني الحارث فهي لغة بطون من ربيعة، وكنانة، وبني العنبر، وبني الهجيم، وبكر بن وائل، وزبيد، وخثعم، وهمدان، وفزارة، وعذرة[22].

وبالنظر لشيوع ذلك الاستعمال قال ابن يعيش: "وهي لغة فاشية"[23]، ووصفها السيوطي قائلا: "ولزوم الألف في الأحوال الثلاثة لغة معروفة"[24]، بل قد جعلها ابن جني هي القياس فقال: "على أن من العرب من لا يخاف اللبس، ويجري الباب على أصل قياسه؛ فيدع الألف ثابتة في الأحوال، فيقول: قام الزيدان، وضربت الزيدان، ومررت بالزيدان"[25]، فيكون إذن القياس لزوم المثنى الألف، غير إنه قد عدل عنه إلى الياء في النصب والجر لأمن الالتباس، ويقدم علة أخرى تعضد كون لزوم الألف أقيس في العربية، فقال: "وذلك –وإن كان قليلا- أقيس، لأن العرب قالوا: مسلمون، فجعلوا الواو تابعة للضمة (لأن الواو لا تعرب)، ثم قالوا: رأيت المسلمين، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم، فلما رأو أن الياء من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها، وثبت مفتوحا، تركوا الألف تتبعه، فقالوا: رجلان في كل الأحوال"[26].

فتبين بهذا أن مدار الأمر على المناسبة بين الحرف الإعرابي وحركة المناسبة لما قبله، فلما قبل هذا الأخير تغير حركته في جمع المذكر السالم تغير الإعراب الحرفي بما يناسب الحركة، فكانت الواو مناسبة للضمة في (المسلمُون)، والياء مناسبة للكسرة في (المسلمِين)، ولكن لما تعذر ذلك في المثنى وثبت الحرف على حركته (الفتحة) كان القياس أن تتبعه الألف في ذلك إذ هي أنسب حروف الإعراب له، وعلى ذلك جاءت هذه اللغة، وهي -على غير ما ذكره الفراء- كثيرة فاشية في قبائل من العرب كما بيّناه آنفا، مما يجعل من تأويل قوله تعالى {إِنَّ هَذَانِ

لَسَاحِرَانِ}[طه:63] بما يوافقها من لهجة تلك القبائل العربية سائغا لا إشكال فيه، وكما قال الحلواني: "ربما كان أصح تفسير أن القرآن نزل بلغة الحجاز، وجاءت هذه القراءة على لغة الآخرين، كما جاء فيه من لغات القبائل غير الحجازية أشياء كثيرة من ظواهر الإدغام والهمز"[27]، وبهذا يزول الإشكال دون تكلف أو تعقيد.

2. لهجة "أكلوني البراغيث":

اشتهر في القواعد العربية إلزام الفعل الإفرادَ إذا ما كان فاعله أو ما ناب عنه اسما ظاهرا، قال سيبويه: "... فإذا بدأت بالاسم قلت: قومك قالوا ذاك، وأبواك قد ذهبا، لأنه قد وقع ههنا إضمار في الفعل، وهو أسماؤهم، فلابد للمضمر أن يجيء بمنزلة المظهر، وحين قلت: ذهب قومك، لم يكن في (ذهب) إضمار، وكذلك: قالت جاريتاك، وقالت نساؤك، إلا أنهم أدخلوا التاء ليفصلوا بين التذكير والتأنيث، وحذفوا الألف والنون لما بدؤوا بالفعل في تثنية المؤنث وجمعه كما حذفوا في التذكير"[28]، ومعنى كلام سيبويه أن الاسم إذا تقدم على الفعل فإنه يبقى محتاجا لما يبينه، وذلك نظير إضمار أسماء من قاموا بالفعل، غير أن هذا الملحظ منتف عند البداءة بالفعل إلا في شيء واحد وهو التأنيث؛ فألحقوا علامته بالفعل دون علامة التثنية وعلامة الجمع؛ إذ حذفموهما كما حذفت العلامة في التذكير لاستغناء الفعل عنها؛ إذ الأصل التذكير والتأنيث فرع عنه، وفي الأصول أن ما كان أصلا لم يحتج إلى علامة أو تعليل، وأن ما خالف الأصل كان محتاجا إليهما.

هذا وقد أتى في القرآن الكريم ما يخالف القاعدة السابقة، ومن ذلك قوله تعالى {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}[الأنبياء:3]، وظاهر الآية لحوق علامة الجمع في الفعل {أَسَرُّوا} مع كون فاعله اسما ظاهرا {الَّذِينَ}، وهذا غير الشائع في القواعد النحوية كما سلف، ولذلك فقد كثرت تأويلات النحاة وتخريجاتهم لهذا الحرف من القرآن الكريم على أقوال عدة، منها ما ذهب إليه طائفة من النحويين كالأخفش (ت830هـ) وأبي عبيدة (ت209هـ)[29] من أن الآية جاءت على لهجة "أكلوني البراغيث"، وهي لغة طيء، وأزد شنوءة، وبلحارث بن كعب، واستعملها غير هؤلاء من شعراء قبائل أخرى[30]، وهذه اللهجة يدل على خاصيتها اسمها؛ فعلى مقتضى الأشيع في لسان العرب فإنه يقال: أكلتني البراغيث، غير إنه قد ألحقت علامة الجمع في الفعل مع وجود فاعله اسما ظاهرا (البراغيثُ)، ولعله قد سميت اللهجة بهذا التركيب لسماع بعض الأعراب ينطق به فجُعل علما عليها، واختار ابن مالك (ت672هـ) تسميتها بـ"لغة يتعاقبون فيكم ملائكة" نظير ورود الحديث الشريف بها في قوله صلى الله عليه وسلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار"[31] فلعله كره وسمها بما ينفر عنها، فاختار الاستعمال النبوي المقبول ليشير إليها،

وعن هذه اللهجة قال سيبويه: "واعلم أن من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضرباني أخواك، فشبهوا هذا بالتاء التي يُظهرونها في قالت فُلانة، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث، وهي قليلة. قال الشاعر: وهو الفرزدق:

ولكنْ دِيافيٌّ أبوه وأمُّه .:. بحَورانَ يعصِرنَ السّليطَ أقاربُهْ

وأما قوله جل ثناؤه: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينِ ظَلَمُوا} فإنما يجيء على البدل، وكأنه قال: انطلقوا فقيل له: مَن؟ فقال: بنو فلان. فقوله جل وعز: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينِ ظَلَمُوا} على هذا فيما زعم يونس"[32]، وأول كلام سيبويه موافق لما سبق تفصيله، ثم إنه عرض للآية فأوّل المرفوع الذي بعد الفعل على أنه تابع على البدلية لا عمدة على الفاعلية، فيكون بذلك (الذين) بدلا مرفوعا من الواو في {أَسَرُّوا}، وظاهر كلامه في سائر كتابه على أنه ممن لا يجيز حمل شيء من القرآن الكريم على هذه اللهجة، وخالفه في ذلك الأخفش وأبو عبيدة كما سبق، وكذا الزمخشري (ت538هـ) في "الكشاف"[33]، والفراء (ت822هـ) في "معاني القرآن"[34]، وقال أبو حيان (ت745هـ) في "ارتشاف الضرب من لسان العرب": "وهذه اللغةُ عند جمهور النحويين ضعيفةٌ، وكثرةُ ورودِ ذلك يدلُّ على أنَّها ليستْ ضعيفةً"[35].

ولعل السبب في تحاشي النحاة اعتماد هذه اللهجة في تأويل بعض آي القرآن هو اتقاء جعلها لغة مقيسا عليها؛ فإن النحاة متفقون على أن اللغة إذا وردت في القرآن الكريم فإنها تغدوا لغة قياسية؛ يجوز استعمالها في الخطاب الأدبي الراقي؛ شعرا ونثرا، وهو ما أقره ابن مالك في سياق عرضه لآراء المانعين لهذه اللهجة فقال: "وبعض النحويين يجعل ما ورد من هذا خبرا مقدما ومبتدأ مؤخرا، وبعضهم يبدل ما بعد الألف والواو والنون منهنّ، على أنها أسماء مسند إليها. وهذا غير ممتنع إن كان من سُمع ذلك منه من أهل غير اللغة المذكورة. وأما أن يُحمل جميع ما ورد من ذلك على أن الألف والواو والنون فيه ضمائر فغير صحيح، لأن أئمة هذا العلم متفقون على أن ذلك لغة لقوم من العرب مخصوصين فوجب تصديقهم في ذلك كما تصدقهم في غيره"[36].

ويذهب سليم النعيمي إلى تعليل آخر في هذه القضية؛ إذ يربطها بدواعي التطور الذي شهدته اللغة العربية منذ أقدم عصورها إلى اليوم، فاعتبر أن: "الفعل قد كان يطابق الفاعل في الجنس أوالعدد، تقدم عليه أو تأخر عنه، ثم أصبح بفعل التطور يطابقه إذا تأخر عنه فقط، ويدلنا على ذلك هذه البقية من اللهجات التي يسميها النحويون لغة (أكلوني البراغيث) والتي جاء منها أمثلة في الشعر والحديث والقرآن"[37]، فعلى هذا تكون هذه اللهجة مما شاع في

بعض قبائل العرب حتى استعمله عدد غير قليل من الشعراء، ثم إن سنن التطور التي تحكم اللغات الطبيعية –ومنها اللغة العربية- قد أدت لترك هذا الاستعمال تماشيا مع التطور الذي شهده الفكر، وتبنته اللغة، وعلى هذا قول محمد أحمد الدالي أيضا؛ إذ جعل هذه اللغة من البقايا الدالة على أصل كان معتمدا في الاستعمال العربي القديم[38]، غير إنه اندثر إلا في عاميات بعض البلدان العربية كسورية ولبنان ومصر، وغيرها.

وأما النحاة واللغويون المعاصرون فكثير منهم على ثبوت شواهد هذه اللهجة في القرآن والحديث، ومنهم عباس حسن إذ يقول: "ومن البديه أن محاكاة القرآن في ألفاظه المفردة والمركبة محاكاة دقيقة أمر سائغ بل مطلوب، فإذا حاكيناه في مثل الآيتين السابقتين [يريد قوله تعالى {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} وقوله {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ}] وغيرهما، كانت المحاكاة الدقيقة صحيحة قطعا، ولا يجرؤ أحد أن يصف التركيب بالخطأ"[39].

وممن تابع عباس حسن في هذا القول: محيي الدين عبد الحميد، ورمضان عبد التواب، وحسن خميس الملخ، وخليل عمايرة، وآخرون، وقد تناول آراء هؤلاء مناقشا ومفندا محمد أحمد الدالي في كتابه "الحصائل في علوم العربية وتراثها"[40] منتصرا بذلك لرأي سيبويه ومن نحا نحوه من المانعين، وواصفا للهجة بالقلة والشذوذ، على أن حججه في دفع الأثار النبوية الواردة بهذه اللهجة قابلة للمناقشة؛ ذلك أنه أرجعها إما لافتراضات تحتمل الإثبات أو التفنيد كتصرف الرواة، وعجمة النقلة، أو لمسائل أصولية مختلف فيها كحجية الحديث النبوي الشريف، لما يعتريه من رواية بالمعنى على التفصيل المشهور في كتب أصول النحو.

خاتمة:

نأتي إلى خاتمة هذا البحث الذي خصصناه لمعالجة قضية الاحتجاج باللهجات العربية القديمة في القراءات القرآنية من منظور نحوي، ونستطيع أن نستشف مما سبق عرضه جملة من النتائج هي:

- اللهجة العربية القديمة لغة عربية فصيحة، ذات خصائص أدائية معينة، تنسب في الغالب لقبيلة أو أكثر لكثرة الاستعمال والاشتهار، وهي بذلك ترتقي إلى مصاف اللغة الأدبية في الاستعمال الشعري والنثري، لكنها قد تقل أو تكثر لعدة عوامل، فيكون بحسب ذلك موقعها من الاطراد أوالشذوذ.

- اعتمد النحاة في الاحتجاج باللهجات العربية القديمة منهجا تصنيفيا انتقائيا؛ فجعلوا لهجة قريش أعلاها على الإطلاق، ثم رتبوا بقية اللهجات بحسب عزلتها عن الحواضر، وبعدها عن الاختلاط بالأعاجم، وذلك لأمن تفشي اللحن، وفساد الألسنة، كما وقع في لهجات القبائل المتاخمة لبلاد الأعاجم.

- اعتمد القراء في قبول أسانيد القراءات المروية شرط موافقة وجه من وجوه العربية؛ ومن هنا اتصلت العلاقة بين القراءات القرآنية واللهجات العربية؛ إذ كثير من خصائص القراءات إنما يرجع في الأصل لخصيصة لهجية عند قبيلة بعينها.

- رغم اختلاف أهل العلم في معنى الأحرف القرآنية السبعة، وذهاب بعضهم إلى أنها سبع لغات لسبع قبائل عربية، فإن الاتفاق حاصل على عدم خلو القرآن الكريم من بعض لهجات القبائل العربية القديمة، وذلك إما في القراءات التي روي بها، أو في الأحرف السبعة التي أنزل عليها.

- العلم باللهجات وتاريخها وخصائصها يسد الباب أمام كل مرتاب ومشكك في صحة القرآن الكريم وفصاحته؛ إذ تم تخريج كثير من المواضع المشكلة فيه على أساليب لهجية كانت معروفة مشتهرة في القرن الذين أنزل عليهم القرآن الكريم، وبهذا تظهر مشروعية الاهتمام بالدراسات اللهجية خصوصا فيما تعلق منها بمعالجة القضايا النحوية و اللغوية والأصولية والقرآنية.

- لغة بني الحارث في إلزام المثنى الألف مطلقا، ولغة "أكلوني البراغيث"، وغيرهما من لهجات العرب مما تعزى إليه كثير من الاستعمالات اللغوية الصحيحة الفصيحة سواء في القرآن الكريم أو في الشعر أو النثر، وهذا ما يفتح آفاقا بحثية واسعة في دراسة القرآن الكريم وقراءاته، وهو أيضا ما يعطي الشرعية لدراسة اللهجات في الألسنة الطبيعة الحالية، بعدها مظهرا صحيا لتطور اللغات البشرية كونها كائنا حيا ينمو ويتطور، وشرط ذلك أن تحترم حدود البحث في كل مستوى لغوي، فلا تحجر الفصحى على العاميات، كما لا تتجرأ العاميات على الفصحى، فتكون هذه وتلك {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ}.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الجزري:

- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، الكتب العلمية، لبنان، 1999.
- النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتب العلمية]، لبنان، د.ت.

- ابن جني:
- الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، د.ت.
- سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000.

- ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1990.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، لبنان، ط3، 1414هـ.
- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001.
- أبو حيان:
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، مصر، 1998.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق،(من 1 إلى 5)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، د.ت.
- أحمد العطية، التثنية في اللغة العربية، مجلة علوم اللغة، مصر، المجلد 02، العدد 02، 1999.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، لبنان، ط3، 1407هـ.
- السيوطي:
- الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974.
- الاقتراح في أصول النحو، ضبطه: عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، لبنان، ط2، 2006.
- السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت.
- الفراء، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت.
- سليم النعيمي، نقد الكتب (نحو القرآن ونحو الفعل)، مجلة المجمع العلمي العراقي، العراق، المجلد 24، 1974.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1988.
- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف ، مصر، د.ت.
- عبد الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996.
- مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدعوة ، مصر، د.ت.

- محمد أحمد الدالي، الحصائل في علوم العربية وتراثها، دار النوادر، سورية، 2011.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، مصر، ط7، 1995.

الإحالات:

1 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، لبنان، ط3، 1414هـ، مادة (ل هـ ج).
2 - ينظر: مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدعوة ، مصر، د.ت، مادة (ل هـ ج).
3 - عبد الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص1-2.
4 - المرجع نفسه، ص2.
5 - السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ضبطه: عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، لبنان، ط2، 2006، ص47.
6 - ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، د.ت، ج2، ص7.
7 - أبو حيان، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق،(من 1 إلى 5)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، د.ت، ج9، ص342.
8 - ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج2، ص12.
9 - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج1، ص128.
10 - ابن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، الكتب العلمية، لبنان، 1999، مادة (ق ر).
11 - ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتب العلمية]، لبنان، د.ت، ج1، ص8.
12 - المرجع نفسه، ص9.
13 - ينظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974، ج2، ص106.
14 - أخرجه البخاري (4199)، ومسلم (819).
15 - ينظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974، ج1، ص164.
16 - ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، مصر، ط7، 1995، ص164 وما بعدها.
17 - ينظر: ابن جني، الخصائص، ج2، ص12.
18 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص169.
19 - سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1988، ج3، ص385.
20 - ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق، ج2، ص321.
21 - ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001، ج2، ص357.

22 - ينظر: أحمد العطية، التثنية في اللغة العربية، مجلة علوم اللغة، مصر، المجلد 02، العدد 02، 1999، ص108.

23 - ابن يعيش، شرح المفصل، مرجع سابق، 296/2.

24 - السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت، ج1، ص145.

25 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000، ج2، ص339.

26 - الفراء، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت، ج2، ص184.

27 - نقلا عن: أحمد مطر العطية، التثنية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص110.

28 - سيبويه، الكتاب، مرجع سابق، ج1، ص235.

29 - ينظر: محمد أحمد الدالي، الحصائل في علوم العربية وتراثها، دار النوادر، سورية، 2011، ج1، ص76.

30 - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص83.

31 - ينظر: ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1990، ج2، ص116.

32 - سيبويه، الكتاب، مرجع سابق، ج2، ص41.

33 - ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، لبنان، ط3، 1407هـ، ج3، ص102.

34 - ينظر: الفراء، معاني القرآن، مرجع سابق، ج1، ص316.

35 - أبو حيان، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، مصر، 1998، ج2، ص739.

36 - ابن مالك، شرح التسهيل، مرجع سابق، ج2، ص117.

37 - سليم النعيمي، نقد الكتب (نحو القرآن ونحو الفعل)، مجلة المجمع العلمي العراقي، العراق، المجلد 24، 1984، ص302-303.

38 - ينظر: محمد أحمد الدالي، الحصائل في علوم العربية وتراثها، مرجع سابق، ج1، ص64.

39 - عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف ، مصر، د.ت، ج2، ص74 [حاشية:2].

40 - ينظر: محمد أحمد الدالي، الحصائل في علوم العربية وتراثها ، مرجع سابق، ج1، ص80 وما بعدها.